مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــ المجلد: 10 / العـدد:02 (جويلية2022) ص 411– 429
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

موقف الدولة الفاطمية من الحروب الصليبية

The Position of the Fatimids State of the Crusades

خالد كريبي
Khaled KRIBI
المركز الجامعي بريكة (الجزائر)، kribi1969@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/11/11	تاريخ القبول: 2022/02/12	تاريخ النشر: 2022/07/14

الملخص:

تعتبر فترة الحروب الصليبية من أصعب الفترات التي مرت على العالم الإسلامي، فمنذ أواخر القرن 05هـ/11م بدأت حملاتها تترا على العالم الإسلامي، وخاصة على بلاد الشام .

كانت القوى الإسلامية في ذلك الوقت موزّعة بين الخلافة العباسية الضعيفة، المعتمِدة على قوة السلاجقة المناصرة للعباسيين، أما القوة الأخرى فكانت الدولة الفاطمية، صاحبة المذهب الشيعي الإسماعيلي، التي كانت تسيطر حينها على مصر، وبلاد الشام. وفي الوقت الذي تصدى فيه السلاجقة للحملات الصليبية منذ بداياتها رغم ضعف دولتهم، جاء موقف الدولة الفاطمية مغايراً لذلك، حيث غابت فيه نجدتهم للمسلمين، والدفاع عن الإمارات الإسلامية رغم القوة التي كانت تمتلكها.

الكلمات المفتاحية: الحروب الصليبية؛ الفاطميين؛ بيت المقدس ؛البابوية ؛ الفرنجة .

Abstract: The period of the Crusades is considered one of the most difficult periods for the Islamic world. Since the end of the 5th century AH/11 AD, its campaigns had begun to fade in the Islamic world, especially in the Levant.

The Islamic forces at that time were divided between the weak Abbasid caliphate, which relied on the power of the pro-Abbasid Seljuks, and the other power was the Fatimid state, from the Ismaili Shiit school of jurisprudence ,which at the time controlled Egypt and the Levant. At a time when the Seljuks repelled the Crusades from their beginnings, despite the weakness of their state, the position of the Fatimid state was different from that, as their help to the Muslims was absent, and defending the Islamic Emirates was absent despite the power they possessed.

Key words: Crusades; Fatimids; Jerusalem; the Papacy; Franks.

المؤلف المرسل: خالد كريبي ، الإيميل: kribi1969@yahoo.fr

1. مقدمة:

تعد الدولة الفاطمية نموذجا واضحاً للدولة الطائفية في التاريخ الإسلامي، و هي دولة شيعية قامت أساسا على دعوى الانتساب إلى فاطمة بنت الرسول (ص)، وقد تميزت بنزعتها القومية وتبنيها للمذهب الإسماعيلي، أين ظهرت به وظاهرت له وعليه كأول بداية لها في التاريخ بعد انتقالها إلى مصر و توسعها في المشرق الإسلامي.

وقد أحكمت هذه الدولة سياستها وسيطرتها على كثير من البلاد الإسلامية في مدة زمنية تزيد على قرنين ونصف القرن من الزمان(297-567هـ/909-1171م) وعلى الرغم من قوتها واتساع نفوذها ومنافستها لأعظم قوتين معاصرتين في صورة الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية حتى امتازت عن باقي الدويلات المستقلة عن الخلافة العباسية بشيء من التفرد والارتقاء كونها قد عارضت وحاكت الحكم العباسي في المستوى والتأهيل والندية، إلا أنها تعرضت للكثير من الانتقادات والاستدراكات المشحونة بالاستنكار والتنديد والشجب من بعض المؤرخين في طوريها المغاربي والمشرقي، خاصة في تلك التجليات والصور كاضطهاد أهل السنة و التضييق عليهم وإخفاء نسبهم وصولا إلى اكبر التهم وهي تقاعس هذه الدولة في مد يد العون للمسلمين في بلاد الشام أيام الغزو الصليبي بل وصل الأمر إلى حد تحالف بعض حكامها وتآمره مع القوى الصليبية والاستنجاد بهم ضد الكيانات الإسلامية الأخرى.

و في هذا المقال سنحاول تبيين الموقف الفاطمي من الحروب الصليبية، التي تعددت حملاتها على المشرق الإسلامي (08 حملات حسب اغلب الدراسات على بلاد الشام ومصر)، ومن ثم نقوم بتسليط الضوء على مناورة التحالف الذي أقامه الفاطميون مع الفرنجة من أجل تحقيق أهدافهم في اخذ بلاد الشام من السلاجقة وصولا إلى تحقيق الصليبين لهدفهم المنشود وهو احتلال بيت المقدس، وهذا الذي يقرر ويعكس – تاريخيا – مدى خذلان الموقف الشيعي في منع وردع الزحف الصليبي في البلاد الإسلامية.

2. أوضاع العالم الإسلامي عشية الغزو الصليبي :

كان العالم الإسلامي قبيل الغزو الصليبي يعاني من انقسام سياسي واضح, تجلى ذلك في تلك الصراعات والصدامات بين التكتلات السياسية، وكذا في الحدود الجغرافية ففي بغداد كانت الخلافة العباسية و في مصر الخلافة الفاطمية و في بلاد فارس السلطنة السلجوقية، إضافة إلى قوى أخرى محلية، وكانت الخلافة العباسية تعاني من ضعف سياسي وعسكري تخضع فيه لسيطرة السلاجقة (الحسيني، 1985، ص 114)، حيث لم تختلف حالة الخلفاء العباسيين أيام السلاجقة اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في أيام بني بويه (ابن خلكان، ص175)، إذ لم

يكن لهم من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة، على أن معاملة السلاجقة السنيين للخلفاء العباسيين كانت أحسن بكثير من معاملة البويهيين الشيعيين لهم (حسن ابراهيم، 2001، ص293) .

أما مصر فقد كانت خاضعة لنظام الحكم الفاطمي من سنة 358هـ/969م إلى قرابة قرنين من الزمن و لم تكن الخلافة الفاطمية أحسن حالا من الخلافة العباسية من حيث القوة المادية فقد كانت تعاني من اضطرابات شديدة كادت تقضي عليها خاصة بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله عام 487هـ/1094م (المقريزي، 1971، ص 184–185) وتولي ابنه الأصغر المستعلي بالله (ابن ثغري، 1992، صفحة 140) الخلافة بفضل ما قام به الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (ابن الاثير، 1987، الصفحات 208–209) الذي أقصى الأخ الأكبر للخليفة الجديد من اعتلاء الحكم رغم أحقيته به وعمد إلى تولية اخية الأصغر المستعلي بالله فهرب نزار إلى الإسكندرية فتبعه أهل الإسكندرية وقد لقبوه بالمصطفى لدين الله ووزر له افتكين التركي، لكن الأفضل استطاع عام 488هـ/1095م أن يهزم نزار وافتكين ثم أخذهما أسيرين وبعدها تخلص منهما وبقتل نزار انقسمت الدعوة الإسماعيلية إلى نزارية تطعن في خلافة المستعلي والأخرى مستعليه ترى صحة خلافته وفي ذات الوقت لم يكن للمستعلى الذي تولى الخلافة وهو صغير السن أي أمر أو نهى مع الأفضل إذ كان هذا الأخير هو صاحب السلطة الفعلية في مصر (ابن ثغري، 1992، الصفحات 140–143).

اتسمت العلاقة بين الخلافتين العباسية و الفاطمية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري بالصراع السياسي والعسكري والمذهبي فبرز تهديد ابي الحارث البساسيري (ابن الاثير، 1987، صفحة 347) لدار الخلافة في بغداد ودعوته للخليفة الفاطمي المستنصر بالله على منابر بغداد وذلك في سنة 450هـ/1058م (ابن كثير، 1987، ص 755–759) الامر الذي عجل بدخول السلاجقة لبغداد حيث استعان الخليفة القائم بأمر الله بالسلاجقة الذي تمكنوا من القضاء على حركة البساسيري سنة 451هـ/1059م وهذا يسر لهم السيطرة على الخلافة العباسية. (ابن الجوزي، 1992، ص 54).

أما الدولة العباسية فقد حاولت استرجاع نفوذها على مصر انطلاقا من سياستها التحريضة ودعمها المتواصل للحركات المناوئة والناقمة على الدولة الفاطمية هذا من جهة، ومن جهة استغلت تلك الدعاوي الباطلة للشيعة في نسبهم لفاطمة رضي الله عنها فراحت تُصدر محاضر رسمية تنكر نسب الفاطميين والقدح فيهم، كما حدث في محاضر الطعن التي حررتها الدولة العباسية عامي 402هـ/1005م و444هـ/1052م من جهة اخرى (ابن ثغري، 1992، الصفحات 400–402).

بالنسبة لبلاد الشام فإنها كانت تضم قوى سياسية كل منها تسعى لتحقيق استقلالها بعيداً عن النفوذ العباسي في بغداد او الفاطمي في مصر على غرار بني مرداس (العامري، 2007، ص 66) وآل الجراح (العامري، 2007، ص 49) والحمدانيين (العامري، 2007، ص 57) مما ترتب عنه تلك الحملات المسعورة التي شنها الفاطميون على بني مرداس وغيرهم (دعكور، 2004، ص 128) بغرض القضاء عليهم، وفي خضم هذا الصراع الدائر في محيط البلاد الشامية، بين الفاطميين وبني مرداس وبني الجراح، قدم السلاجقة إلى هذه البلاد –الشام– وتمكنوا من السيطرة عليها فهم أهل قوة ومنعة وتاريخ حربيٍ، مما جعلهم يتوسعون في اسيا الصغرى أين حققوا انتصاراً عظيماً في معركة ملاذ كرد في عهد السلطان ألب ارسلان (الذهبي، سير أعلام النبلاء، 1982، الصفحات 114–117) ضد البيزنطيين سنة 463هـ/1070م (ابن خلدون، 2000، ص 582). ثم توالت وتعاقبت الحملات التي أرسلها السلاجقة إلى الشام حيث انتزع السلطان دمشق من أيدي الفاطميين سنة 464هـ/1071م، وبعدها توجه قائده أتسز بن أوق الخوارزمي إلى فلسطين فضم الرملة و بيت المقدس و طبرية و يافا سنة 471هـ/1078م (ابن خلدون، 2000، ص585–586), و أسقط الدعوة الفاطمية بها وأقام الخطبة فيها للخليفة العباسي المقتدي بالله (ابن كثير، 1987، ص 141) وقد *ظلت* بلاد الشام حبيسة معترك سجالي بين السلاجقة والفاطميين قصد السيطرة عليها حتى دخلها الصليبيون.

إن هذا الانقسام جاء عقبة في سبيل تلاحم الأمة الإسلامية، و على حساب وحدة المسلمين ولمِّ شتاتهم في المشرق الإسلامي، الأمر الذي جعل الأمور ممهدة، والطريق سهلة أمام المد الصليبي المتربص لهذه الثغرات والانتكاسات على مستوى العلاقات العامة في الوسط الإسلامي، وعليه فلا غرو ولا عجب من أن يغزو الإفرنج بلاد الإسلام بكل بساطة وسهولة ثم يستقرون فيها طويلا.

3. الحروب الصليبية المَاهية والدوافع:

ظهرت فكرة الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي لأول مرة على يد البابا غريغوري السابع (465–478هـ/1073–1085م) سنة 467هـ/1074م عندما طلب من ملوك و أمراء أوربا مساعدة الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع الذي استنجد بالبابوية طالباً ارسال نجدات سريعة لإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية ، و أراضيها في آسيا الصغرى من هجمات السلاجقة الذين تمكنوا من هزيمة البزنطيين في معركة ملاذكرد سنة 463هـ/1071م (ابن الاثير، 1987، الصفحات 388–389).

وأخذت هذه الحروب تعريفات متعددة اوردها الباحثون انطلاقا من خلفياتهم ونزعاتهم فهناك من أعطاها صبغة دينية و عرفها :"....انها صراع ديني بين الاسلام والمسيحية..." (يوسف، 1981، ص 8).

وهناك من عرفها قائلا: "انها حركة دينية بقدر ما كانت حركة سياسية كما كانت حركة اجتماعية اقتصادية مثلما كانت حركة فكرية عسكرية..." (قاسم، 1993، ص 55).

أما محمد العروسي المطوي فقد قال عنها:"...لم تكن الحروب الصليبية في معناها الواسع الا فترة زمنية ولونا خاصا من ذلك الصراع الدائم ما بين الشرق والغرب ذلك الصراع الذي اختلفت تسميته باختلاف الازمنة والمقاصد..." (المطوي، 1982، ص 27).

بناء على ما تقدم فإن الحروب الصليبية – في محيطها اللغوي – ماهي الا فترة زمنية أو جزء من الصراع القائم بين الشرق والغرب له امتداد ضارب في العصور القديمة التي نشأت فيها المصالح بين الشرق والغرب. أما من جهة الاصطلاح والتطبيق الفعلي الذي قررته الحقيقة التاريخية فهو حركة صليبية استعمارية ولدت في غرب أوربا و اتخذت الهجوم المسلح على بلاد المسلمين و بخاصة الشرق الأدنى الإسلامي منهجا وشعارا لها (عمران، 2000، ص 15).

كان من جملة الأسباب المحركة للحروب الصليبية الأسباب الدينية حيث ادعى البابا اوربان الثاني (1088–1099م) (عاشور، 1972، ص 319) الذي عُرف عنه تعصبه الشديد للمسيحيين، أن المسلمين بالشرق يقومون باضطهاد الحجاج المسيحيين أثناء زيارتهم للأماكن المقدسة في بيت المقدس، وأخذوا يهولون الأمر في أوربا، و ينعتون المسلمين بالتعصب و انتهاك حرمة أماكنهم المقدسة، فهذا بطرس الناسك اشهر شخصية من زوار بيت المقدس، و أعظم داع للحروب الصليبية و تهييج الجماهير المسيحية لم يمنعه وجود السلاجقة من زيارة بيت المقدس و كنيسة القيامة ثم عاد الى أوربا داعيا للحرب (المطوي، 1982، ص 32).

ومهما كان الأمر فقد كان الادعاء باضطهاد النصارى و انتهاك حرمة الأماكن المسيحية المقدسة من طرف المسلمين، من ابرز الأسباب التي اتخذت وسيلةً لإثارة العواطف و القيام بالحرب الصليبية خصوصا لدى الطبقات الشعبية المسيحية بأروبا. والحقيقة أن العامل الديني كان موجودا بشكل ما، و لكنه ينبع ويستمد طاقته من تدين عاطفي يقوم على التعصب المقيت و لم يكن يحتكم إلى تدين عقلاني حقيقي، فالجو المحتدم المحموم الذي اشاعته الدعاية المسعورة والتي أذكت البابوية نيرانها ضد المسلمين، جعلت نفوس بعض أولئك الفرسان يرغبن في قتل المسلمين (براور، 1999، ص 18).

كما كان للعامل الاقتصادي دور هام في توجيه تلك الحروب فكانت المدن التجارية الإيطالية، و البندقية على وجه الخصوص، من أشد المتحمسين لفكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين، و سبب هذه الحماسة لم يكن دينيا انما اقتصاديا ؛ذلك أن هذه المدن التجارية رأت في الحرب فرصة ذهبية لتدعيم وجودها التجاري في عالم البحر

المتوسط ولذلك كان البنادقة يأملون في الحصول على الشاطئ الشرقي للمتوسط اذا ما نجحت الحملة .و قد حدث هذا بالفعل حيث نال البنادقة مكافأتهم من الصليبيين –فيما بعد– في شكل امتيازات (براور، 1999، ص 20).

ولعبت الظروف الاجتماعية دورها في الاستجابة السريعة للدعوة التي وجهها البابا للجماهير الاوربية، فالطبقة الشعبية كانت في الدرك الأسفل من الفاقة و الاحتياج، و كانت تُلاقي الامرَّين من الضرائب و (التسخير) و الظلم و الإرهاق، و كان الفلاحون مطحونين في مجتمع يستولى على نتاج عملهم في الحقول و يتركهم في مستوى معيشي ادنى من حيوانات الحقل زيادة على المجاعة التي عمت انحاء أوربا في زمن الحروب الصليبية (المطوي، 1982، ص 33).

و بالإضافة الى هذه العوامل ينبغي الإشارة إلى أن نسبة كبيرة من أمراء غرب أوربا و فرسانها فكروا في المشاركة في الحركة الصليبية طمعاً في تحقيق جاه دنيوي أو نفوذ سياسي، لأن النظام الإقطاعي في العصور الوسطى كان يقوم على أساس الأرض، وليس بالضرورة أن الأشراف وذوي المكنة والجاه كان لهم أراضي في تلك الفترة، فقد أشارت التقارير التاريخية أن نسبة كبيرة من الأمراء و الفرسان كانت تفتقد ثرواتهم للعقارات والاقطاعات والأراضي، لذلك تحمس الكثير منهم للمشاركة في الحروب الصليبية سعيا منهم في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق و طمعا في الاستيلاء على أراضٍ تعوضهم سوء مكانتهم وقلة مؤنتهم في الغرب (عاشور، 1964، ص 13–14).

و هكذا تجمعت عوامل عديدة –اقتصادية و اجتماعية و سياسية – لتجعل فئات متنوعة و جموعاً غفيرة من أهالي غرب أوربا يلبون الدعوة للمشاركة في هذه الحروب الصليبية، و يجدون في تلك المغامرة فرصة للخلاص من احوالهم السيئة أو لتحقيق مكاسب سياسية و اقتصادية في الشرق.

الحملة الصليبيّة الأولى (1095–1099م):

بدأ التحضير للحملة الأولى ابتداء من سنة 1095م، أين أرسل الإمبراطور ألكسيوس (الصوري، 1998، ص 155) إلى البابا أوربان الثّاني يتوسل إليه لإنقاذ الأراضي المقدّسة من قبضة الأتراك السّلاجقة، و يخبره باستفحال خطرهم ليس فقط على الإمبراطوريّة البيزنطيّة فحسب، وإنما على الغرب الأوربيّ كذلك، من هنا سعى البابا أوربان الثّاني إلى تكوين جيش يتولى هذه المهمة، فقام بالتجوال في غرب أوربا لعقد اجتماع كبير، فكان مجمع كلير مونت بفرنسا في 18 نوفمبر من نفس السنة، وقد خطب فيه أوربان الثّاني و حث على القيام بهذه الحملة و قال للحضور أن هذه مشيئة الله، فاتخذت هذه العبارة والصّليب الأحمر رمزا لهذه الحروب (عاشور، 1964، ص 84–85).

و بعد المجمع قامت العامة يدفعها الحماس بالانخراط تحت لواء بطرس النّاسك (الصوري، 1998، ص 90) وغوتشالك و غوتيه المعدم، و سميت هذه الحملة بالحملة الشعبيّة، و كانت عبارة عن خليط مشوش يبلغ 18000 شخص أغلبهم من اللصوص و هذا الذي جعل أوربان – في مجمع كليرمونت– يخشى من الحماس الشعبي، و قد انطلقت هذه الحملة في صيف سنة 1096م، متجهة إلى القسطنطينية التي وصلتها في 30 جويلية 1096م، و قاموا في طريقهم بأعمال السلب و النهب والتخريب، فخشي الإمبراطور ألكسيوس على عاصمته منهم فقام بالسماح لهم بعبور البوسفور إلى آسيا الصّغرى في 5 أوت من نفس السنة، و امرهم بالانتظار حتى تصل اليهم قوات أخرى احسن منها سلاحاً و عتاداً لكنهم لم يستمعوا لنصائحه وتوجهوا إلى نيقية عاصمة سلاجقة الروم فخربوها فقضى عليهم السّلاجقة و حولهم الى كومة ضخمة من الاشلاء ، و فر بطرس الناسك بمن بقي معه و عاد إلى القسطنطينيّة، حتى أن بعض المصادر تذكر أن الامبراطور البيزنطي قد سُر بهزيمة الصليبيين على يد السلاجقة (عمران، 2000، ص 115).

أما الحملة الصليبيّة الأولى المنظمة –كما كان يأمل أوربان– فقد بدأت جيوشها تصل إلى القسطنطينيّة مابين 23 ديسمبر 1096م إلى غاية أفريل 1097م، و كانت مكونة من أربعة جيوش، الأول يتكون من فرنسيي الدومين يقودها كل من هيو كونت فرماندويس شقيق ملك فرنسا فليب الأول، و إيتين هنري كونت بلو، و روبير كورتهوز بن وليم الفاتح كونت نورمانيا، و روبير الثّاني كونت فلاندر، أما الجيش الثاني المتكون من فرنسيي الشمال و اللورين و الألمان بقيادة بلدوين دي هينو وأخيه كودفريبويون دوق اللورين، فيما قاد الجيش الثالث المتكون من نورمانديي إيطاليا، الكونت بوهموند كونت تارنتوابن أخيه تانكريد، و ريتشارد كونت ساليرنو، أما الجيش الأخير المتكون من قوات الجنوب البروفنسالية فقد قادها كل من المفوض الحبري إيمار مونتي كونت تولوز، و ريمون الرابع سان جيل، و قد كان عدد هذا الجيش مليون محارب ومحاربة، و قد تعهد قادة الحملة للإمبراطور ألكسيوس بيمين الولاء و تبعية الأماكن التي يفتحونها له فسمح لهم بالعبور إلى آسيا الصّغرى (عمران، 2000، ص 267). و قد كانت أول عملية قام بها الصليبيّون هي حصار ريموند سان جيل لمدينة نيقية (الصوري، 1998، ص 200) والتي كانت عاصمة سلاجقة الرّوم ابتداء من 14 ماي إلى أن تم إسقاطها في 19 جوان 1097م، كما تمكن الصليبيّون من انتزاع كل المدن السّاحليّة الغربيّة لآسيا الصّغرى من يد السّلاجقة (عمران، 2000، ص 268)، ثم عبروا هضبة الأناضول، و تمكنوا من هزيمة جيش تركي في 1 جويلية1097م في سهل دوريليه، و في 4 جويلية 1097م ، اصطدم جيش بوهيموند بجيش قلج أرسلان هزم على إثره هذا الأخير و أسر الكثير من جيشه، وفي منتصف أوت احتلت القوات الصليبية مدينة قونية دون مقاومة تذكر، ثم دخلوا أرمينية الصغرى واستولوا على مدينة

هرقلة في سبتمبر، بعدها انقسم الجيش إلى قسمين حيث سار كل من تانكريد وبلدوين وراء مطامعهما الشخصية، فاتجها إلى جبال طوروس فحاصر الأول طَرَسُوسْ (الحموي، 1977، ص 28–29) في 21 سبتمبر ثم استولى عليها من يد الحامية السّلجوقيّة، و تمكن كذلك من أخذ مدينة أذنة، أما بلدوين فقد وصل في 25 نوفمبر 1097 إلى الأراضي الأرمينيّة و أخذ تل باشر من السّلاجقة ثم اتجه إلى الرها (الحموي، 1977، ص 106)، و تمكن من تنصيب نفسه أميرا عليها في 8 مارس 1098م وبهذا تشكلت إمارة (كونتية) الرها.

و قد توجه القسم الثّاني من الجيش بقيادة بوهموند و ريمون سان جيل و البقية إلى حصار مدينة أنطاكية في الفترة من (2 نوفمبر1097م إلى 3 جوان 1098م)، و التي كان يحكمها آنذاك الأمير ياغي سيان الذي استنجد بكل من دقاق أمير دمشق و طغتكين والسلطان بركياروق و عدد من الأمراء الذين حاولوا فك الحصار عن المدينة في فيفري 1098م، فقتلوا جماعة من الصليبيين قرب شيزر، كما ذهبت قوات بقيادة كربوقا صاحب الموصل الذي اجتمع مع قوات دقاق بن تتشوطغتكين لكنها وصلت متأخرة إلى أنطاكية في 7 جوان بعد أن سقطت المدينة في قبضة الأعداء و ذلك لأن كربوقا عوضا من التوجه مباشرة إلى أنطاكية حاصر الرها مدة ثلاثة أسابيع دون جدوى، فحاصروا هم المدينة وكادوا يستعيدونها لولا الخلافات التي كانت بينهم فتمكن الصليبيون من فك الحصار في 14 جوان1098م (ابن الاثير، 1987، صفحة 15).

ثم واصل الصليبيون زحفهم نحو بيت المقدس فمروا على عدة مدن منها كفر طاب، أفامية، شيزر، معرة النعمان، حمص، حماه، جبلة و مصياف التي وصلوها في 22 ديسمبر 1099م، وأخذوا هذه المناطق من يد المسلمين ثم رحلوا إلى بعرين و اتجهوا صوب طرابلس فحاصروا عرقة أربعة أشهر ثم استسلمت طرابلس ثم مروا على الساحل اللبناني فمروا على صيدا التي قاومهم أهلها و استسلمت بيروت، ثم مروا على صور و عكا التي استعصت عليهم، ثم مروا باللد والرملة، ثم ملكوا بيت لحم، (ابن الاثير، 1987، صفحة 16)، ثم استطاع تنكريد الاستيلاء على بانياس و على جبيّل (ابن الاثير، 1987)، ثم واصلوا طريقهم إلى بيت المقدس عن طريق بيروت، صيدا، و قيسارية، فوصلوا إليها يوم الثلاثاء7 ماي 1099م، و حاصروها أربعين يوما، ثم بدأ الهجوم عليها يوم 13 جويلية1099م بواسطة عشرين أو خمسة وعشرين ألف جندي و في يوم الجمعة 15 جويلية 1099م ، اقتحم تانكريد باب القديس ايتين و تسلم ريمون سان جيل برج داود و بهذا دخل الصليبيون بيت المقدس التي عاثوا فيها فسادا لمدة أسبوع كامل فقتلوا الناس بالمسجد الأقصى و خربوا و انتهكوا الحرمات، ثم أسسوا إمارة طرابلس التي استنجد أهلها بالأمير سقمان بن أرتق لكنه مات في طريقه إليها (ابن الاثير، 1987، صفحة 134)، و بهذا تنتهي الحملة الصليبية الأولى بتأسيس أربع إمارات هي الرها، أنطاكية، طرابلس و بيت المقدس، وأربع بارونيات كبرى

هي صيدا، يافا، عسقلان و الجليل، و اثني عشر إقطاعا خاضعا للصليبيين هي أرسوف، حبرون، الداروم، قيسرية، نابلس، بيسان، حيفا، تبنين، بانياس، كيفا و اللد وبيروت، فخسر المسلمون أعز وأغلى الأماكن على قلوبهم مما سيضطرهم في الفترة اللاحقة إلى إعلان الجهاد ضد الإمارات الصليبية وقد رفع لواءه في البداية الأمراء السلاجقة.

إن هذه الانتصارات السريعة العاجلة التي حققها الصليبيون في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الميلادي ليست نتاج قوتهم و تماسكهم و شجاعتهم بقدر ما هي نتيجة ضعف القوى الإسلامية في المشرق الإسلامي وانحلال امورها وتفتت صلبها .وهكذا وصل الصليبيون الى الشام في أواخر 1097م ليجدوا امامهم قوى إسلامية ضعيفة انهكها النزاع المذهبي و باعدت بينها الاطماع و المنافسات مما مكن الصليبيين من تحقيق مكاسب سهلة وسريعة (عاشور، 1972، ص 26-27).

4. موقف الدولة الفاطمية من الغزو الصليبي :

مرت السياسة الفاطمية تجاه القوى الصليبية الغازية لبلاد الشام بمراحل ثلاث عرفت كل مرحلة منها تطورات و تأثرت بعوامل :

1.4مرحلة التقارب و الاستفادة:

بدأت هذه المرحلة حينما قرر الفاطميون من حكام مصر التخطيط والاستثمار في حقد الصليبيين ونزعتهم الاستئصالية تجاه المسلمين فحاولوا توجيههم لضرب السلاجقة و السنيين جملة، فعمدوا إلى نصيحة الامبراطور البيزنطي اليكسوس الذي طلب منهم اثناء وجودهم بالقسطنطينية أن يخلصوا الى نوع من التفاهم مع الفاطميين في مصر لانهم أعداء ألداء للأتراك و من سماتهم التسامح مع المسيحيين من رعاياهم. ففي شهر افريل من عام 1098م قدم الى معسكر الصليبيين المحاصر لمدينة انطاكية سفارة مصرية محملة بالهدايا النفيسة أرسلها رجل مصر القوي الأفضل وزير الخليفة الفاطمي المستعلي بالله، وعرضت السفارة المصرية على الصليبيين، الذين رحبوا بها أن يتقاسموا أملاك الإمبراطورية السلجوقية، فيستولى الصليبيين على شمال بلاد الشام، بينما تأخذ مصر جنوبها (فلسطين فقط)، وقد أظهر الصليبيون موافقتهم على هذا الاتفاق، و قد وجد الصليبيون في ذلك فرصتهم في تدبير المؤامرات بين القوى الإسلامية وضرب بعضها ببعض. (راينسمان، 1994، صفحة 356). ويبقى السؤال الاهم حول هذه الاتصالات المبكرة بين الفاطميين و الصليبيين هو:هل تعمد الصليبيون خديعة الفاطميين، وأخفوا عنهم نيتهم الزحف على القدس التي كانت داخلة ضمن املاك الفاطميين السياسية أنذاك؟و يبدو ان الامر كذلك .

لقد منحت وأضافت السفارة الفاطمية –بخرجتها هذه– إلى الصليبيين وضعا سياسياً معترفاً به في منطقة مهمة من مناطق المشرق الإسلامي، وقد حرص الصليبيون على تضليل الفاطميين عن طريق بث الطمأنينة في نفوسهم وإعطائهم صورة غير دقيقة عن مشروعهم السياسي والعسكري في بلاد الشام . كما أرسلوا رسائل طمأنينة لكل من دقاق ملك دمشق ورضوان ملك حلب، ولما فرغوا منهم استطاعوا مواجهة القوى الإسلامية كل على حدة (عَشري، 1983، ص 137).

ويبدو أن الصليبيين هم من دبروا مكيدة أن يقوم الفاطميون بمهاجمة القدس و القضاء على القوة السلجوقية المتماسكة، حتى اذا ما جاءها الصليبيون وجدوا قوات منهكة، و هذا ما حدث بالفعل، فقد دمر الفاطميون قوة السلاجقة في القدس بدل من أن يتحدوا معهم للوقوف في وجه الصليبيين، و كان عليهم الدفاع عن المدينة، و لكن قواتهم لم تكن كافية، لذلك عرض الخليفة الفاطمي على الصليبيين أن يعقد معهم صلحاً لكن جودفري و بوهمند طلبا التسليم بغير شرط ثم اقتحما المدينة (عمران، 2000، ص 33) .

و قد أشار إلى ذلك المؤرخ الكبير ابن الأثير في معرض حديثه عن تلك الحادثة بأسلوب المستنكر الذي لم يستوعب أن يقوم الفاطميون حكام مصر آنذاك بالاتفاق مع أعدائهم في الدين ضد إخوانهم المسلمين، و إن اختلفوا في المذهب قائلا:"... قيل: إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية و تمكنها و استيلاءها على بلاد الشام الى غزة، و لم يبق بينهم و بين مصر ولاية أخرى تمنعهم و دخول الاقسيس مصر و حصرها فخافوا و أرسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم و بين المسلمين .و الله أعلم.." (ابن الاثير، 1987، الصفحات 13–14).

ومعلوم أن ملوك و أمراء أوربا قبل الشروع في ارسال حملاتهم الصليبية، عكفوا على دراسة الشرق الإسلامي والاطلاع على أحواله قبل خوض أي حرب ضد المسلمين، و عمدوا إلى استغلال كل القوى التي من شأنها أن تساعدهم في مشروعهم الصليبي في الشرق الإسلامي و الاستفادة منه قدر المستطاع، لذلك زار عدد من زعماء الحملة الصليبية الأولى الإسكندرية سنة 475هـ/1083م، وقد رحب بهم الفاطميون أيما ترحاب، ثم إنهم قد ركبوا البحر رفقتهم، ونزلوا في يافا ثم خرجوا منها الى بيت المقدس و استغرقت رحلتهم تلك، سنتين (الكناني، 1981، ص 85) .و هو ما يعنى أن الغرض من هاته الرحلة هو القيام بجولة استطلاعية تجسسية لمعرفة أحوال القوى الإسلامية في بلاد الشام، و ما يدعم ذلك أن رئيس الوفد الذي زار القدس هو الذي قاد أحد الجيوش الصليبية المتجهة الى بيت القدس فيما بعد، و هو أول أمير لبيت المقدس من الصليبيين، كما أن الوفد زار القدس بعد دعوة

البابا غريغوري السابع لمساعدة الإمبراطورية البيزنطية في حربها ضد السلاجقة (شاهين، 1986، ص 37) . مما يؤكد جريرة التواطؤ الفاطمي و سلبية موقفهم من العدوان الصليبي.

والواقع أن الموقف السلبي الذي وقفته الدولة الفاطمية من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها إلى شمال بلاد الشام، أثار حيرة المؤرخين المسلمين، فيعجب المؤرخ المصري ابن تغري من موقف الفاطميين و عدم مشاركتهم القوى الإسلامية التي نهضت للدفاع عن انطاكية ضد الصليبيين و يقول: "...و لم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدرى ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال و الرجال... (ابن ثغري، 1992، صفحة 146)".ثم يسترسل ابن تغري فيشرح كيف خرجت عساكر المسلمين في العراق و الشام لصد زحف الصليبيين (ابن الجوزي، 1992، ص 43) "...كل ذلك و عساكر مصر لم تتهيأ للخروج ..." (ابن ثغري، 1992، صفحة 147).

لقد نتج عن هذا التقاعس من قبل الخلافة الفاطمية أن نجح الصليبيون في الزحف جنوبا حتى استولوا على بيت المقدس عام 492هـ/1099م و بذلك استطاعوا أن يقيموا مملكة صليبية كبيرة سيطرت على معظم موانئ فلسطين. و لاشك في أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس أرخى الستار عن أهدافهم المبيتة والمضمرة، فتعين على الخلافة الفاطمية في مصر أن تراجع موقفها من العدوان الصليبي الذي ساندته من قبل، ظناً منها انه انما جاء ليفتك شمال بلاد الشام و آسيا الصغرى من أيدى السلاجقة ويترك لهم جنوبه.

2.4مرحلة التصادم و المواجهة: يبدا هذا الطور من العلاقات بمواجهة الصليبيين باعتبارهم عدوا غازياً ، والتخلي عن اعتبارهم حليفاً محتملا ضد الخصم السياسي و المذهبي السني .

لقد كان التحرك الفاطمي لمواجهة الصليبيين بطيئا ومتخاذلا فعندما علم الأفضل بنواياهم في الهجوم على بيت المقدس جمع رجاله وخرج من مصر على رأس جيش ليحول دون استيلاء الصليبيين على القدس قاصدا عسقلان التي وصل اليها عشرين يوماً بعد أخذ الصليبيين القدس و ارسل يعاتبهم و ينكر عليهم اخلالهم بما اتفقوا عليه طالبا اليهم سرعة الرحيل من الأملاك المصرية في فلسطين فأعادوا الرسول بجواب مجمل. وحتى بعد وصوله الى عسقلان لم يبدا بالهجوم لأنه كان يراوغ الى ان تصل اليه الامدادات مما يؤكد ان هذا الوزير لم يكن قديرا في امور الحرب مثلما كان في امور السياسة ،فقد اضاع وقتا ثمينا في انتظار وصول الامدادات اليه مما أتاح للصليبين الاستعداد للقائه وامتلاكهم زمام الامور (عاشور ا.، 1969، صفحة 208) .

وهجم الصليبيون عليه بجيش عظيم وحلت الهزيمة بجيش الفاطميين في عسقلان في رمضان 492هـ/1099م، وتشتت شملهم فقرر الأفضل العودة الى مصر تاركا المدينة و أهلها دون حماية من الجيش الصليبي (الذهبي، 1999، ص 427).

و تجمع المصادر التاريخية ان الفاطميين لم يتأخروا طويلا في ارسال حملات عسكرية بعد سقوط بيت المقدس و بعض المدن الساحلية كأرسوف و قيسارية فقد قام الوزير الافضل بإرسال حملة أولى كانت في رجب عام 494هـ /1101م بقيادة سعد الدولة و يعرف بالطواشي الذي كان حاكم بيروت من قبل هدفت هذه الحملة استرداد بيت المقدس وقد تجمعت هذه الحملة في عسقلان التي صارت بمثابة مركز انطلاق جميع الحملات التي خرجت ضد الصليبيين املاً في وصول الامدادات له. فقضى الجيش الفاطمي عدة اشهر في عسقلان دون أي عمل مما اتاح للصليبين فرصة كافية للاستعداد ووضع الخطط العسكرية اللازمة لمواجهة القوة الفاطمية .

و بعد وصول الامدادات تحرك سعد الدولة بقواته الى منطقة الرملة حتى تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس والتقى مع الصليبين بين الرملة ويافا وكان النصر حليف القوات الفاطمية غير ان انصرافهم بحثاً عن الغنائم جعل قوات بلدوين تداهمهم، و انتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدة صفوفهم و قد قتل من المسلمين عدد كبير في حين فر الباقون باتجاه عسقلان بعد ان سقط قائد الحملة –سعد الدولة القواسي – صريعا في المعركة ، و استمر الصليبيون يطاردون المسلمين حتى اسوار عسقلان و تركوا خلفهم كل ما معهم من سلاح ومؤن فملك الصليبيون جميع ما للمسلمين (ابن الاثير، 1987، صفحة 68).

أما الحملة الفاطمية الثانية فكانت سنة496هـ/1102م، وفيها ارسل الافضل ابنه شرف المعالي بجيش كبير الى عسقلان، و اتبعت هذه الحملة الطريق نفسه الذي اتبعته الحملة السابقة حيث التقى الجيشان الفاطمي والصليبي بين عسقلان و الرملة ، و هزمهم هزيمة ساحقة ،و لم يسلم قائد الجيش الصليبي بلدوين الاول من القتل الا بصعوبة بالغة و اضطر الى التخفي في الحشيش ، ثم تسلل الى الرملة هو و من معه فحاصرهم الجيش الفاطمي لكن بلدوين استطاع النجاة والافلات من قبضة الفاطميين الذين خفوا من مطاردته تاركا رجاله ما بين قتيل و أسير (ابن الاثير، 1987، صفحة 68).

كادت هذه الهزيمة تقضي على الوجود الصليبي في بيت المقدس و المنطقة ككل لولا الفوضى التي سيطرت على جيش شرف المعالي بسبب تنازع قادته حول الوجهة بعد موقعة الرملة بين من يرى التوجه الى بيت المقدس و امتلاكه و بين من يريد قصد يافا و امتلاكها حتى انهم كادوا يقتتلون ، ويعود سبب هذا الخلاف حسب بعض المؤرخين الى ضعف شخصية شرف المعالى و قصر نظره اذ كان من الاجدر بالفاطميين ان يرسلوا جزء

من قواتهم لاستعادة بيت المقدس بينما تتجه بقية القوات الفاطمية لمهاجمة يافا (راينسمان، 1994، صفحة 111) .وبذلك اضاع الفاطميون فرصة استعادة القدس ، كما أضاعوا فرصة استعادة أقاليمهم الأخرى في جنوب بلاد الشام بعد ان تقرر المسير الى مدينة يافا التي اقاموا قربها معسكرهم و حاصروها غير أن بلدوين تمكن من مباغتة القوات الفاطمية بعد المساعدات التي تحصل عليها و انزال الهزيمة بها مما جعلها تنسحب الى عسقلان لتفادي ابادة قواتها من جهة و تجميعها من جديد في انتظار نجدة سريعة من الوزير الفاطمي الافضل من جهة اخرى (فهمي، د ت، صفحة 70).

ويروي ابن الاثير ان الوزير الافضل ما ان سمع بهزيمة ابنه شرف الدين المعالى حتى اسرع بأرسال حملتين احدهما برية قوامها اربعة الاف فارس تحت قيادة المملوك تاج العجم و الاخرى بحرية بقيادة القاضي ابن قادوس (ابن.الأثير، 1987، صفحة 68). غيران الفاطميين لم يكونوا بحاجة الى كثرة الرجال انما كانوا في حاجة لروح النظام والتعاون و احكام الخطط الحربية اذ رفض تاج العجم معاونة ابن القادوس (عاشور س.، الحركة الصليبية، 2001، صفحة 28)، وقد علق رينسمان على ذلك قائلا:" ان ما أنقض الفرنجة يومذاك هو الاستراتيجية الفاطمية المتذبذبة .فقد كانت كتيبة صغيرة من جيشهم كافية لاسترداد بيت المقدس بعد معركة الرملة ...وبذلك ضاعت اعظم فرصة لاستعادة فلسطين" (راينسمان، 1994، صفحة 112) .

لقد كانت هزيمة الجيش المصري في عسقلان نهاية الوجود الفاطمي في بلاد الشام باستثناء بعض مدن الساحل، و تأكد للصليبيين ضعف مقاومتهم مما جعلهم يوطدون سيطرتهم على بيت المقدس و كان في إمكانهم امتلاك مدينة عسقلان بكل سهولة بعد استسلام أهلها الا ان الخلاف الذي نشب بين جودفري وريموند لم يمكن الصليبيين من احتلالها (عاشور س.، الحركة الصليبية، 2001، الصفحات 209-210) .

ولاشك أن هزيمة جيش الأفضل في معركة بيت المقدس فتحت أمام الصليبيين الطريق على مصراعيه لامتلاك الكثير أو البقية الباقية من بلاد الشام وما حوله فسيطروا على الجليل و حيفا وعكا497هـ/1104م وطرابلس سنة 502هـ/1109م وغيرها، و في ذلك يقول ابن تغري عن الخليفة الآمر الفاطمي أنه كان:"...يتناهى في العظمة و يتقاعد عن الجهاد ...و كان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل و حصونها في أيامه ...و لم ينهض لقتال الفرنج البتة، وان كان أَرسل مع الاسطول عسكراً فهو كلا شيء" (ابن ثغري، 1992، صفحة 176).فكان لابد من البحث عن حليف و تناسي الخلافات المذهبية ، و تجميع الجهود لمواجهة العدوان الصليبي على بلاد الشام.

3.4مرحلة الاستقواء بالمدد العسكري السني:

كان الاجدر بالفاطميين مع بداية العدوان الصليبي على بلاد الشام ان يقفوا موقف الحليف بجانب اخوانهم السنيين من السلاجقة غير ان الذي تم كان عكس ذلك ،حيث هاجموا السلاجقة و افتكوا منهم بيت المقدس و مدن اخرى كما سبق الذكر ،ولم يُنسق الفاطميون جهودهم مع أهل السنة من السلاجقة الا في صيف سنة 1105م عندما قام الوزير الأفضل بإرسال حملة كبيرة لطرد الصليبيين من الشام حيث طلب من أمير دمشق طغتكين المساعدة على قتال العدو المشترك على الرغم من الخصومة المذهبية بينهما وفعلا استجاب طغتكين لنداء الفاطميين و ارسل اليهم احد رجاله و معه ألف و ثلاثمائة فارس ، وكانت هذه المحاولة العملية الوحيدة يشترك فيها حكام مصر و بلاد الشام المسلمون ضد الصليبيين (عاشور س.، الحركة الصليبية، 2001، صفحة 246) ،و اورد مؤرخ دمشق ابن القلانسي في حوادث 498هـ:"..و في هذه السنة خرج من مصر عسكر كثيف و كوتب ظهير الدين اتابك بالاستدعاء للمعونة و الاعتضاد الى جهاد الكفرة الاضداد فلم يتمكن من الاجابة الى المراد لأسباب عاقته عن المعونة و الاسعاد.ثم استدرك الرأي واستصوب المسير الى العسكر المصري للاعتضاد على الجهاد فسار اليه ووصل الى ظاهر عسقلان و نزل قريب منه وعرف الافرنج والتقى الفريقان بين يافا و عسقلان فاستظهر الافرنج على المسلمين و انهزم عسكر مصر الى عسقلان وعسكر دمشق الى بُصرى" (القلانسي، د ت، الصفحات 148-149).

إن مما ساعد على هذا الحلف المصري الشامي يومذاك ان الدولة الفاطمية الضعيفة كانت قد يئست من امكان انتزاع الشام من السنة الاتراك و ان امير دمشق طغتكين كان يرى في العلاقة الحسنة بالفاطميين عونا له ضد منافسيه الاقوى منه، من السنة السلاجقة في شمال الشام كما أعان على التنسيق الشامي المصري ضد الصليبيين أن الوزير الفاطمي الأفضل لم يكن يعبأ كثيرا بالخلاف المذهبي بين السنة و الشيعة و يركز على انجاز اهدافه السياسية والعسكرية بنجاح. (الشنقيطي، 2016، صفحة 198).

وجسدت مدينة صور مظهرا ثانيا للتعاون الفاطمي الشامي فعندما فرض بلدوين حصارا على المدينة استجاب طغتكين لطلب اهل صور بحمايتهم فارسل اليهم المئات من الدماشقة و عين عليهم واليا –اسمه مسعود– وفرق عليهم المؤون و الاموال فطابت نفوس اهلها. في الوقت الذي لم يتقاعس فيه الافضل الفاطمي في شحن صور بالذخيرة و الميرة ، مما أمكن أهلها من الثبات داخلها، في الوقت الذي كان طغتكين يساعدهم من خارجها. (القلانسي، د ت، صفحة 178). وظل الوفاق سائدا بين طغتكين وبين الوزير الفاطمي الافضل لمدة عشر سنوات،

و قد أرجع رينسمان ذلك الى رغبتهما و حاجتهما الى بعضهما البعض لمواجهة الصليبيين (راينسمان، 1994، صفحة 199).

ويبدو أن موافقة الوزير الأفضل الفاطمي على السماح لقوة من قبل طغتكين باحتلال صور أثار غلاة الشيعة في مصر ،مما أدى الى مقتل الأفضل في احدى شوارع القاهرة اواخر سنة 1121م بيد بعض الباطنية.

و تجسد أكثر استقواء الفاطميين بالدماشقة السنيين ضد الصليبيين اثناء تجرؤ بلدوين على مهاجمة مصر ؛فتم الاتصال بين الوزير الافضل في مصر و طغتكين في دمشق على القيام بعمل مشترك ضد العدو المشترك ، ووافق الأفضل على أن يضع جيوشه في عسقلان تحت قيادة طغتكين .و لم يلبث طغتكين ان حضر بنفسه الى عسقلان وعندئذ أخبره قائد الجيش الفاطمي : "بأن لديه تعليمات بالوقوف عند رأي طغتكين و التصرف على مايحكم به" (ابن.الأثير، 1987، صفحة 178) وكان أن أحس بلدوين بخطورة الموقف فحاول عزل طغتكين عن الأفضل و عرض على الأول عقد هدنة لكن طغتكين رفض عرضه.على ان الموقف لو يؤد الى صدام بين الطرفين اذ رابط كل من الصليبيين و المسلمين مدة ثلاثة أشهر ثم انصرف كل فريق من حيث أتى . (عاشور ا.، 1969، صفحة 37).

لم يستمر التعاون و التحالف الشيعي – السني طويلا خاصة بعد موت الوزير الافضل حيث قام الخليفة الامر بأحكام الله بعزل الحاكم الدمشقي مسعود بعد شكوى اهل صور في محاولة لاستعادة سيطرته الفعلية على المدينة لتتكشف سياسة الخليفة الفاطمي الآمر في مسالمة الصليبيين فتخلص الفاطميون من القوات الدمشقية السنية التي كانت تشترك معهم في الدفاع عن صور ،مما يؤكد تقصير الخليفة في الدفاع عن مدينة صور ، ويعلق ابن بردي على ذلك بالقول :" فكان حال الفاطميين في أول الأمر تقاعدوا عن نصرة المسلمين ، و الأن يأخذون سيف الدولة من صور صاروا نجدة للفرنج" (ابن ثغري، 1992، صفحة 181).

إن هذه الردود والمواقف والأعمال التي كانت تقوم بها الدولة الفاطمية تبين فتور موقفهم وضعفهم في مواجهة الصليبيين ومقاتلتهم وهناك رغبة قوية في مهادنتهم، و عدم الجد في محاولة طردهم من مواقعهم في جنوب بلاد الشام، بل هناك من البيت الشيعي الفاطمي من كان يرى أن في بقاء الصليبيين ضماناً لحماية مُلك الفاطميين من أطماع السلاجقة (عاشور ، 1969، صفحة 37) .

ومما يؤكد هذا التوجه هو قتل الوزير الأفضل على يد الخليفة الآمر بأحكام الله بسبب موقفه من الصليبيين وإرساله لعدة حملات لاستعادة بيت المقدس واستجابته لنجدة سكان مدن جنوب الشام التي كان يتحرش بها الصليبيون رغم الهزائم المتلاحقة وبقاء الأمور على حالها (ابن الاثير، 1987، الصفحات 207–208).

كما أن تحرك علماء شمال بلاد الشام في دمشق و حلب و رغبتهم في التوجه إلى بغداد للمطالبة بالثأر لما حل بالمسلمين في بيت المقدس أربك الفاطميين، و زعزع استقراهم وهيمنتهم على تلك المدينة، فصار لابد – عليهم– من التحرك والمبادرة بعمل حاسم كمشروع استعجالي من شأنه التشويش على الخلافة العباسية السنية في بغداد، إذا ما فكرت بالقيام بعمل ما، للتدخل في شؤون بلاد الشام تحت ستار انقاذ تلك البلاد من الخطر الصليبي، ورغم عودة الوفد من بغداد الى الشام بدون نجدة واستجابة، إلا أن هذا الأمر يعطي صورة واضحة عن التحرك والدور الفاطمي في مواجهة العدوان الصليبي الذي لم يكن الا دورا سلبيا ومصلحياً (ابن الاثير، 1987، الصفحات 19–20).

ويعلق ابن خلكان على السهولة التي تسلم بها الفرنجة القدس بقوله : " ..لو كانت في يد الارتقية (أمراء الشام من الأتراك) لكان أصلح للمسلمين.." وفي هذا إشارة ان الاتراك استماتوا في الدفاع على بلاد الشام ضد هؤلاء الغزاة بعكس الفاطميين الذين تساهلوا معهم (خلكان، دون سنة، صفحة 179).

وقد صور ابن تغري في تاريخه– بعد سنوات– مأساة مدينة طرابلس و يلقي تبعة سقوطها على الفاطميين و يلومهم لعدم اكتراثهم بمحاربة الصليبيين فيقول:"... لو أن النجدة تمت بأسرع ما يمكن، مع ارسال قوة كافية لكان النصر حليف المصريين." لكن ذلك لم يتم و دخل الصليبيون الى طرابلس في 12 أوت 1109م (ابن ثغري، 1992، صفحة 179)، و سمحوا للقائد الفاطمي بالخروج سالماً مع فريق من رجاله و هذا امر كان قد تكرر في عدة مدن دخلها الفرنجة حيث يخرج قائد الحامية و رجاله سالمين كما حدث في بيت المقدس ربما تطبيقاً لنصوص الاتفاق الموقع بين الفاطميين و الصليبيين عند حصار مدينة انطاكية (ابن الاثير، 1987، صفحة 136).و هذه كله اجماع وتأكيد من المصادر التاريخية على التقصير الفاطمي تجاه العدوان الصليبي.

وسيتكرر التأمر الفاطمي الصليبي ضد نورالدين محمود و من بعده ضد صلاح الدين الأيوبي الذي الغى الخلافة الفاطمية و انهى المذهب الشيعي في مصر.

5. خاتمة:

يمكن القول في نهاية هذا العمل أن الفاطميين أهملوا بشكل كبير الدفاع عن المدن التي كان تحت حكمهم في بلاد الشام، و أن من كان يقوم بهذه المهمة هم سكانها الأصليين، و أن أهدا ف الفاطميين السياسية لا تتقاطع مع اهداف السكان الذين كانوا يهدفون للتصدي للعدوان الصليبي، و ربما أدرك الفاطميون أن دولتهم في مصر لم تكن تواجه خطرا وجوديا من الصليبيين .

كما أن الصليبيين تمكنوا من احتلال بيت المقدس و غيرها من المدن الشامية بسبب تقصير الفاطميين في مواجهة العدوان الصليبي رغم علمهم بأهدافهم. بل وساندوهم في تحقيق أهدافهم مع بداية الحملة الصليبية الأولى.

لقد اقتصرت جهود الفاطميين في هذه الفترة العصيبة على تنسيق أعمالهم الحربية مع الأمراء السنة في جنوب بلاد الشام، و هم أمراءَ ضعافاً لا خطر منهم على دولتهم بعكس امراء شمال بلاد الشام.

ان الحملات العسكرية التي أرسلوها و المجهودات الحربية التي بذلوها لم يكن الهدف منها تحرير ما احتله الصليبيون من مدن بل كان هدفهم الحفاظ على نفوذهم الديني و السياسي في المنطقة واسترضاء للرأي العام في مصر، وربما حرصا على مكانتهم في العالم الاسلامي أنداك كقوة منافسة للخلافة العباسية.

6. قائمة المصادر والمراجع:

ابن الاثير. (1987). الكامل في التاريخ (المجلد 8). دار الكتب العلمية. بيروت.

ابن الجوزي. (1992). المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. دار الكتب العلمية . بيروت.

ابن خلدون. (2000). تاريخ ابن خلدون. دار الفكر للطباعة . بيروت.

ابن خلكان. (دون سنة). وفيات الأعيان. دار صادر. لبنان.

ابن كثير. (1987). البداية والنهاية. مصر.

ابن.الأثير. (1987). الكامل في التاريخ. دار الكتب العلمية. بيروت

أبو العباس، أحمد بن شمس الدين، ابن خلكان. (بلا تاريخ). وفيات الأعيان. دار صادر. لبنان

أبي يعلى حمزة ابن القلانسي. (د ت). ذيل تاريخ دمشق. مكتبة المتنبي. القاهرة.

الفتاح؛ سعيد عبد عاشور. (1969). شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية. المجلة التاريخية. مصر.

بردي ابن ثغري. (1992). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب العلمية. بيروت.

ترجمة إلياس شاهين (المحرر). (1986). الصليبيون في الشرق.

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي. (1971). اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء. محمد حلمي محمد أحمد. مصر

جوزيف نسيم يوسف. (1981). الوحدة و حركات اليقظة ابان العدوان الصليبي. دار النهضة العربية. بيروت

حسن ابراهيم حسن. (2001). تاريخ الإسلام (المجلد 15). دار الجبل. لبنان.

خلكان. (دون سنة). وفيات الأعيان. دار صادر. لبنان.

ستيفان راينسمان. (1994). تاريخ الحملات الصليبية (المجلد 2). (ترجمة نور الدين، المحرر) الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.

سعيد عبد الفتاح عاشور. (1964). أضواء جديدة على الحروب الصليبية. المكتبة الثقافية. مصر.

سعيد عبد الفتاح عاشور. (2001). الحركة الصليبية. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.

شمس الدين الذهبي. (1982). سير أعلام النبلاء. مؤسسة الرسالة. بيروت.

شمس الدين الذهبي. (1982). سير أعلام النبلاء. مؤسسة الرسالة. بيروت.

شمس الدين الذهبي. (1999). دول الإسلام ، دار صادر. بيروت.

صدر الدين، علي، الحسيني. (1985). زبدة التواريخ أخبار أمراء والملوك السلجوقية. (محمد نور الدين، المترجمون) بيروت:.

عبد الفتاح عاشور. (1972). تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. دار النهضة العربية. بيروت.

عثمان عبد الحميد عَشري. (1983). الإسماعليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية. منشورات المكتبة التاريخية. القاهرة.

عرب دعكور. (2004). الدولة الفاطمية تاريخها السياسي والحضاري. دار المواسم. بيروت.

علي فيصل العامري. (2007). السياسة الخارجية للدولة الفاطمية. (جامعة الكوفة، المحرر) رسالة ماجستير غير منشورة. العراق.

قاسم عبده قاسم. (1993). ماهية الحروب الصليبية. عين للدراسات التاريخية. مصر.

محمد العروسي المطوي. (1982). الحروب الصليبية في المشرق والمغرب. دار الغرب الإسلامي. لبنان.

محمد بن مختار الشنقيطي. (2016). أثر الحروب الصليبية على العلاقات السنية الشيعية. الشركة العربية للأبحاث والنشر. بيروت.

محمد مقبل فهمي. (د ت). شخصية الدولة الفاطمية في الحروب الصليبية. مصر.

محمود سعيد عمران. (2000). تاريخ الحروب الصليبية 1095–1291. دار المعرفة الجامعية. مصر.

مصطفى حسن محمد الكناني. (1981). العلاقات بين جنوة و الفاطميين في الشرق الأدنى. الهيئة المصرية العامة للكتاب. الإسكندرية.

وليم الصوري. (1998). الحروب الصليبية. (ترجمة حسن حبشي، المحرر) مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع. القاهرة.

ياقوت الحموي. (1977). معجم البلدان. دار صادر. بيروت.

يوشع براور. (1999). عالم الصليبيين. (ترجمة قاسم عبده قاسم، المحرر) عين للدراسات. القاهرة.